

نحو لغة عربية واجبة

بقلم محمد محمود عبدالرازق

ولم افهم منها شيئاً .. وخيل الي ان قراء العراق لن يفهموا من قصتي شيئاً اذا كتبت حوارها باللغة المصرية العامية !! « وان كان احسان عبد القدوس يفضل العامية لحوار اغلب قصصه ، وخاصة الطويلة ، الان . فان هذه الفقرة ستظل دائما شهادة حية لجزيرة فنان يتوق الى الجمهور الكبير . فما بالك وانت تقرأ لا لانك تكتب بلغة قرائك فقط ، بل لانهم يستريحون اليك ، ووسائل الراحة هذه كثيرة ، ليس اقلها الاتجاه الفكري ، والاسلوب بسلطانه العظيم . ولقد صدق جورج ديهايل حين قال « نحن لا نقرأ الكثير من المؤلفين لا لشيء الا لان موسيقاهم لا تتفق وموسيقانا » .

ومن هنا تتبع ازمة الفنان العربي الخاصة ، وبين مدى قلقه بتركة خرافية من اللهجات الإقليمية التي يقف امامها معقود اللسان ، مشتت الوجدان .

انا لا يهمني باي لغة تكتب .. ولا اي لغة تسود ، فالهم هو التعبير الصادق الامين ، لكن تعدد اللهجات تمزيق لجسد الوطن العربي الكبير ، وكذلك فان كانت لبعض اللهجات قواعد مميزة تستطيع مع شيء من التطور ان تتحول بها من العالم المنطلق الى النطاق المنظم ، فهناك لهجات عشوائية همجية ، لا تخضع لقاعدة ، ولا ترسخ لقانون . وايضا .. فان حكاية انقلاب هذه اللهجات الى لغات مستقلة ، حكاية قديمة ومستحلبة في نفس الوقت ، مستحيل ان يوجد عندنا لغات بمعد اللهجات ، لغات شامية وعراقية وجزائرية ومصرية و .. فان ظروف انبثاق اللغات الرومانية عن اللغة اللاتينية - هذا المثل الواقعي الشهير - تختلف عن ظروفنا الحديثة ، وهناك عوامل كثيرة تستبعد تفتت العربية الى لغات متناثرة . ليس اهمها - كما يقولون - فصحانية القرآن . فبالامكان ان يظل القرآن على فصحاء ، قرآنا عربيا غير ذي عوج ، كما انزله الله وهو حائظه (انا نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ، دون ان يحتم ذلك محافظتنا على الفصحى او العربية اصلا ، كما هو الحال لمسلمي الهند وباكستان وتركيا وايران ، حيث ظل القرآن الكريم على فصحاء التي يقرأ بها في الصلاة ، ويرتل في المساجد والدور . وكما هو شأن اقباطنا الذين يقرأون في صلاتهم بعض الايات باللفظة القبطية ، ولغة حياتهم العربية . فان كان الإيمان ، وما يستتبعه من محافظة على لغة دستوره ، من اهم العوامل في القديم ، فهو ليس اهمها الان ، فمن المستطاع المحافظة على ديننا وقوميتنا ولغة كتابنا المقدس دون ان نمنع من التعبير عن عواطفنا وانفعالنا بلغة حياتنا ، اما اهم عوامل استبعاد التفتت في نظرنا فهو تغير الظروف الحياتية في القرن العشرين ، عن طريق الاتصال المباشر وغير المباشر بكافة المجموعة العربية فسي ساعات بالطائرة ، وفي لحظات بالاذاعة والتلفزيون ، وليس بكثير على عالم يتجه الى العالمية بخطى سريعة ، ان تكون له لغة واحدة للتفاهم . انا لا اخلق في الخيال الكلمة التي قالها ايكناتوس في مدينة روما ، والتي من اجلها امر السلطان دوميتان بنفي جميع الفلاسفة لا اكناتوس وجده من المدينة ، هذه الكلمة ذاتها أصبحت حقيقة اليوم وحلم السياسة وامل الاقتصاد ، وكل النفوس الخيرة تردد مع ايكناتوس « انا مواطن في هذا العالم ، والعالم كله وطني » وستتحقق هذه العالمية يوما ، في السياسة والاقتصاد ، كما تحققت في ضمير النفوس الطيبة ، وسيلزم للتجارة والادارة لغة واحدة ، لغة تقوى على النطق بها جميع

مشكلة الفصحى والعامية من اعقد المشاكل التي تواجه الفنان العربي المعاصر ، واذا كانت قضية « الازدواج اللغوي » هي قضية كل لغة ، فانها لا توجد في لغة ما بالتزامن والتشابه الظاهر حاليا بالنسبة للغة العربية ، ومغالط من يسمح لنفسه بمحاولة المقارنة بينها وبين اي لغة كائنة من هذه الناحية . فمعدنا دول ودويلات عربية كثيرة ، لكل دولة او دويلة لهجتها العامية الرئيسية ، وفي كل دولة او دويلة اكثر من لهجة واحدة .. ففي مصر ، فضلا عن لهجة القاهرة ، توجد لهجات عدة للصعيد والوجه البحري والصحراء الغربية و .. ولهجات اعراب بالوحدات تختلف عن لهجات اعراب السلوم او محافظة الشرقية مثلا . وبعملية حسابية بسيطة ، بضرب عدد الدول والدويلات في عدد اللهجات ، يكون لدينا اكثر من خمسين لهجة ، وهو عدد لا نحسد عليه ، بل واحمله مسئولية ازمة التعبير اللغوي عندنا ، وبعضا من ازمة الفنان وقلقه ، فهل تنطبق هذه الحالة على بريطانيا او فرنسا ؟ . اذا قلنا ان هناك لهجة اسكتلندية تبعد كل البعد عن لهجة انجلترا وويلز ، واذا قلنا ان لهجة زارعي وعاصري العنب بشمال فرنسا تختلف كل الاختلاف عن لهجة اهل باريس او مرسيليا . فهل يصل تعدد اللهجات في هاتين اللغتين - الانجليزية والفرنسية - الى خمسين لهجة !! . واذا كانت الامهات يرصن اطفالهن العامية ، ثم يتعلمون الفصحى وقواعدها بالمدارس ، عرفنا لماذا كانت العامية لغة الانفعال ، والفصحى لغة المنطق . والعربية بطبيعتها لغة الحكمة ، وينسبون الى نابليون - وبكثرة ما نسب الى نابليون - انه قال : اذا اردت العاطفة فتكلم الفرنسية ، واذا اردت الشجاعة فتكلم اتركية ، اما اذا اردت الحكمة فتكلم العربية . « ونرى في كل هذا تبريرا للحيرة التي تتملك فنانينا عند محاولة التعبير عن انفعالاتهم وعواطفهم ، الفنان عندنا ينقل بالعامية ، ثم ينقل انفعاله على الورق بالفصحى ، وفي عملية النقل هذه تضعيب زبد الانفعال ، وكثيرة تلك المصطلحات العامية التي تموت بتقلها للفصحى ، او لا يمكن نقلها دون التضحية بالصدق اعلى الصدق . ولقد قال غاندي لبعض اصدياقه نهرو « ان نهرو يحلم بالانجليزية » . وكان غاندي يقصد بهذه العبارة مداعبة نهرو لتمكنه الغائق من اسرار اللغة الانجليزية . لكنه كشف في نفس الوقت ، عن سر عظمة نهرو البلاغية ، سر الصدق الذي تمتاز به كتاباته ، فلقد أصبحت الانجليزية لغته التي ليس له الاها ، بها يحلم ، بها يفعل ، وبها يسر عن انفعالاته . ولم تعد للفتنة الاصلية اي تأثير عليه ، فاجاد ، واصبح صاحب اسلوب متميز في اداب اللغة الانجليزية . وكذلك وضع غاندي بهذه العبارة قاعدة عامة لكافة الكتاب الذين يسهون للصدق والاخلاص في التعبير : ان اللغة التي تخوض بها تجارب حياتك ، هي لغة حياتك ، اللغة التي ينتحتم عليك التعبير بها .. نقل خلجاتك عبر ذبذباتها .. فهل يستطيع الفنان العربي اتباع هذه القاعدة ؟ .

ان الفنان الحديث فنان بلا جمهور .. وان كان له في خسر الاحوال عدد يقرأه في عدة بلدان ، فهو يسعى قدر الطاقة لتوسيع دائرة قرائه ، وفي الكتابة بالعامية تضييق بلا شك لهذه الدائرة . لانك لا تخاطب بها اكثر من 1/5 من الجمهور العربي ، 2 بالمائة من دائرتك القومية . قال احسان عبد القدوس في مقدمة الطبعة الثانية لقصة انا حرة « لقد قرأت اثناء كتابتي للقصة ، قصة عراقية باللغة العامية ..

ليست لفتنا العامية ، وليست فصحي القواميس ، وهي لفتنا العامية
وفصحي القواميس بعد التطويع والتنسيق وابعاد الشوائب بتخليصها
من وحشي الالفاظ وغريبها .

والواقع ان تجربة توفيق الحكيم تجربة صعبة تحتاج الى تمكن
فاتق من الفصحى ، ودراية كبيرة بخبايا العامية . ولكننا آثرنا الحديث
عنها لانها التجربة العملية الوحيدة التي صاغها صاحبها في عمل
فني كامل . وهناك مقترحات كثيرة ملئت بها اسطرالكتب وادراج الجمع
اللفوي ، وبمكته هذه المقترحات كلها والتجارب ان تتكاتف نحو الغرض،
فلها مقترحات مثرية ذكية منها ما جاء بتقرير لجنة العامية والفصحى
الذي عرضه محمد فريد ابو حديد على مجمع اللغة العربية عام 1948
ويتلخص في ضرورة القيام بعملية مسح شامل للغة العربية وذلك
لدراسة ما تستعمله الاقطار العربية في شرق العالم وغربه لامكان معرفة
الالفاظ التي تستعملها الشعوب العربية جميعا او تستعملها كثرة من
تلك الشعوب ، ولا ذكر لها في كتب اللغة « وهذه تدعو الضرورة الى
ادخالها في اللغة لان شيوعتها في الاقطار العربية قرينة على انها عربية
الاصل وان اغفلتها كتب اللغة » فاصحاب القواميس بشر يخطئون
ويصيبون وقد يفوتهم جميعا الاحاطة بما استعمله العرب في حياتهم .
اما اذا لم يكن للفظ هذا الانتشار وكان في الفصحى ما يسهل على
الاسلثة في الاستعمال منه علمنا على احياء ذلك الفصحح وامانة الدخيل،
واذا كان لا يوجد في الفصحى ما يعني عنه ادخلناه في اللغة ما دام
قد صقل في الاستعمال واصبح في صورة عربية مستساغة . مقترحات
كثيرة تقع على كاهلنا امانة بدء تنفيذها ، وبقوة ارادة الانسان .. هذه
القوة الماردة الجبارة .. علينا ان نبدأ العمل ، فلقد تعلم الانسان الكلام
من ابن وغويل الرياح الثلجية الوحشي ، ومن الرقص البسيط لامواج
البحر ذات النواذب . ومن الزلازل ، ومن الزواجب . تعلم الانسان - كما
يقول جوركي - النطق باروع واعذب الكلمات . واذا عجلنا بخوض
تجربتنا فمنا بعمل انساني خالد ، ومكنا للاحتقن من التعمير بلفسة
حياتهم بلا اضطراب او ضيق ، واذا تقاعسنا وقطعنا الصلة بيننا وبين
لحظة الانتصار فنحن الخاسرون . ان امامنا عملا بطوليا ضخما لا يتطلب
سوى الاخلاص والعزم .. ففي نفس الوقت الذي نخوض فيه تجربة
الاسلوب الجديد ، علينا ان نقوم بثورة جارية نحو الامية في البلاد
العربية جمعا .. يجب ان يوضع مخطط رسمي مدروس للاحتفال
« بوقاة » اخر امي عندنا خلال مدة محددة ، حتى ولو حرمانا قبول
الطالب بالجامعة الا بعد تعليمه القراءة والكتابة لعدد معين من الاميين
.. حتى ولو ضحينا بطاق الجامعات والمدارس عاما بعد عام وتجنيد
طلبتها للمساهمة في هذا العمل القومي المجيد . فان غلق الجامعات
عاما ، خير من غلق العقول اعواما . ان تعلم العامل والفلاح معناه التفاؤنا
بجمهورنا الحقيقي الذي نغفده ، فنصبح كتابا لنا جمهور ، بعد ان كنا
نعتمد على بضعة الاف من القراء في احسن الظروف تفاؤلا ، ثم ان هذه
الاف ليست في الغالب الجمهور الحقيقي الذي نشهد مخاطبته .
وبعد هذا الجمهور سيواجهنا مصر مظل .. نفس مصر قبيلة الاتسوري
الذي تحدث عنها تولستوي مع جوركي ، وهي القبيلة التي قيل لاحد
العلماء عنها « كل الاتسورين هلكوا ، ولكن لا يزال ثمة بيفاء يصرف
بعض الكلمات عن لغتهم » . ان انفصال لفتنا عن لغة العمال والفلاحين
كارثة عظمى ، حكم بالوت على اعمال كتابنا ومفكرنا بعد سنين تطول
او تقصر .. « وهكذا تصبح كل النظريات والتاريخ والتطور غير ذات
فائدة ، وسخيفة ، لان الفلاح لا يفهمها ولا يطلبها ، والفلاح اقوى منا،
ويملك قوى ابقى على الزمن » هكذا تكلم تولستوي العملاق .
وعلينا - في نفس الوقت مرة ثانية - ان نقوم بتيسير الكتابة ،
وتيسير النحو ، فنحن بين اثنتين . كما يقول طه حسين « اما ان نيسر
علوم اللغة لتعيا ، واما ان نحفظ بها كما هي لتعوت » .
وفي مرحلة الانتقال التي نرجو الا تطول ، يجب الا ترهبنا
الكلمات العامية ، او نتردد امامها ، طالما اننا نحس بها ، ولا نجسد
مقابلها في الفصحى الا بعد التضحية بحرفية الاحساس او بحرارته .
علينا ان نضع الحرف الذي انقلنا به سواء في السرد او في الحوار .
محمد محمود عبد الرازق
حلوان

الاسلثة ، قل بعد الف سنة . قل بعد مليون ! . لكن العالم في طريقه
للحكومة العالمية باقرب مما تتصور . اويسر العالم الى التجمع ونزوي
نحن في جحور من التفتت !! . هذه هي كنه الاستحالة التي نقصدها ،
فمستحيل ان نعود الى الجحور او نتبعثر فوق الرمال . اننا ، وباحتمية
تاريخية ، الى التجمع نسير ، ومن الناحية السياسية اعتبر التكتل
في اطار القوميات بداية العالمية ، قد يخالفني خلق كثير ، ومهما
بعدت شقة الخلاف بيننا ، فانهم لن يخالفونا في ان التكتل في
اطر القوميات يقرب بين لهجات الامة الواحدة ، الامر الذي يفرضه
الاتصال بوسائله المتعددة . ونحن نرى الان المدن العربية الكبرى تتقارب
لهجاتها باطراد حتى اصبح الشخص القاهري العادي يفهم لفسة
الشاميين اكثر من فهمه لغة بعض محافظات الصعيد ، ومرجع هذا
للاتصال الدائم بين الاقليمين برا وبحرا على مدى العصور . وانسي
لارى تشابها كبيرا بين لهجة اهل دمياط ولهجة اهل الشام وخاصة
الفلسطينيين ، بل وتشابها ايضا في الذوق والحس وبعض العادات
والاطعمة ، ولن يكون الركب الشراعية الصفرة التي كانت تحمل الصيادين
والتجار وطلاب العلم من موانئ فلسطين وسوريا الى دمياط
والاسكندرية باقوى تأثيرا من الراديو الذي يحملنا معه الى افاق بعيدة،
لم نكن بالفيها ولو بشق الانفس .

النصر اذن للغة عربية واحدة .. وها انت ترى اننا نتحدث
بتعبير « النصر » رغم قولنا اننا لاهمنا اي لغة تسود ، فلماذا هذا
الحماس ؟ . الحماس هنا ليس للغة ، وانما لوحدة التفاهم ، واي نصر
اكبر واسمى من ان يعبر المصري عن انفعالاته بكلمات تنتقل عبر الاتر
الى مائة مليون من البشر ، فيتشربونها ، ويفعلون بها مثل انفعاله ! .
ومن حسن الحظ ان قامت محاولات عدة للتقريب بين العامية والفصحى ،
واشهر هذه المحاولات تجربة الحكيم في مسرحية « الصفقة » التي كتب
حوارها بالفاظ منقاة تقرا بالعامية والفصحى معا . ورغم ما يبدو عند
النظرة الاولى من ترفية هذه البدعة ، التي ربما ابتدعتها الحكيم
لجرد ابتكار اسلوب طريف ، وطريقة جديدة ، لا لحل المشكلة . ورغم
هذا فاننا نستطيع الوصول معها الى نتائج هامة تحبط الظن . بعدم
حلها للمشكلة لانها لا نذيب احدى اللغتين في الاخرى وانما تؤكد
انفصالهما ، وهذا هو عيبها الاول على ما يبدو ، وانفصال بينهما
يتضح بالقراءة التي تخلق من النص بالنص العامية او الفصحى . ثم
هي ان قاربت بينهما باختيار اللفظ المشترك ، فانها تقارب بين عامية
واحدة ، هي العامية المصرية ، وبين الفصحى ، وفي ذلك اجحاف بحق
العاميات الاخرى ، وهذا هو العيب الثاني . والذين تتراعى لهم هذه
العيوب لم يتمموا حقيقة التجربة ، بل تناولوها بنظرة فشرية عجلية .
ولكي نصل الى هذه الحقيقة علينا ان نتساءل : اي عامية يريدنا
توفيق الحكيم ان نكتب بها حوارا يقرأ بالفصحى ؟ . وبتركيب اخر
للسؤال : من اي عامية نختار فصحاها ؟ . هل نغرض على جميع
العرب لهجة واحدة ؟ . الجواب بالنفي ، لان في هذا انغرض تضخيما
للمشكلة لا حل لها . لم يبق اذن الا ان يختار كل فنان فصحاها من
عاميته ، شامية كانت ام عراقية ام جزائرية .. وسيستسم القشرون
في مكر ساذج ويقولون : اين الحل وقد اكدتم التعمد ؟ نحن لا نؤكد
التعمد بل نذيه .. غريبة !!! .. اذن فاسمعوا . ان توجد عندنا عدة
عاميات ؟ . نعم .. ولكن هذه العاميات جميعا تنضح من اناء واحد ،
تقرأ بالفصحى . وفي ذلك نصر مؤقت . ويأتي النصر المؤزر بمفسي
الوقت ، اي بعد ان تتجمع لدينا حصيلة ضخمة من الفاظ الفصحى
التقطناها من كافة اللهجات وعرضناها على نطاق اوسع من نطاقها
الحلي . وعندها سندخل مرحلة جديدة ، مرحلة فرض اللفظ نفسه
بنفسه على مختلف الاسلثة والاذواق ، لينزوي غيره من الالفاظ المشابهة
التتابية على الاسلثة .. كل الاسلثة ، خجلا في عالم النسيان . ولن
يكون هذا اللفظ اي لفظ ، بل هو لفظ لديه امكانيات التجبر وقوته ،
فلا بد ان تقوى جميع الاسلثة على اخراجه ، ولا بد ان تجد في حروفه
من الموسيقى العذبة ما تشده . لفظ فني .. حي .. واضح .. اصدق
من اقرانه تعبيرا واشد تحديدا للدلالة . ومن هذه الالفاظ الجديدة
الحية الواضحة الفنية ، تتكون لفتنا الجديدة الحية الواضحة الموحدة .